

فضائح المالية العليا في فرنسا

للاستاذ محمد عبد الله عنان

- ١ -

تشغل فرنسا منذ أسابيع باحدى هذه الفضائح المالية الكبرى التي لا تقف آثارها عند اختلاس مئات الملايين ونكبة آلاف الضحايا ، ولكنها تتغلغل في جميع نواحي الحياة العامة ، وتير في الشعب روحاً جديداً من السخط والريب في سلامة النظم القائمة التي تحدث في ظلها أمثال هذه الفضائح المروعة . والحادث الذي نعنيه هو فضيحة ستافسكي التي يتبع الشعب الفرنسي ، والرأى العالمى تفاصيلها وتطوراتها بمنتهى الدهشة ، والتي كان من خطورتها وفداحة آثارها أن سقطت وزارة مسيو شوتان بعد أن حاولت عبثاً أن تغالب العاصفة وأن تهدى روع الرأى العام .

ولا بد قبل أن ندخل في تفاصيل هذا الحادث العجيب أن نشير الى أن هذه الفضائح المالية الكبرى لم تبق في عصرنا حوادث شخصية أو فردية يسأل عن تديرها أفراد معينون ، وتحصرو نتائجها وآثارها في حدود معينة ، بل غدت بالعكس ظاهرة بارزة في سير المالية العليا ، وظاهرة من ظواهر الحياة العامة حيثما تبلغ النظم الاقتصادية ذروة التعقيد والتقدم . وتقع في جميع الأمم الأوربية من آن لآخر حوادث من هذا النوع ، وتحدث دائماً آثارها السياسية والاجتماعية ؛ ولكن هنالك حقيقة واضحة : هي أن هذه الحوادث تكثر في فرنسا بنوع خاص وتنتج امتزاجاً قوياً بحياتها العامة ، وتتخذ فيها صوراً هائلة مثيرة ، وتلقى دائماً سحجاً من الريب على كثير من الرجال المسؤولين . ونستطيع أن نمثل لذلك بأثلة عديدة من حوادث العصر الحديث ؛ من ذلك فضيحة شركة باناما التي أسسها فردينان دى لسبس سنة ١٨٨١ لتقوم بحفر قناة باناما ، ثم انهارت دعائمها لأعوام قلائل بعد أن اتسعت أعمالها اتساعاً هائلاً وكثرت قروضها وعجزت عن الرفاء بتعهداتها ، وكشف التحقيق القضائى عن اشتراك كثير من النواب والشيوخ في أعمالها والدعوة الى تعويضها اشتراكاً مريباً ، وأحيل بسببها وزير سابق رئيس الشيوخ على محكمة الجنايات سنة ١٨٩٢ ،

اللون . وقد أخذ يحس احساساً مبهماً أن هذه السمرة قد تكون من جملة الأسباب التي أغلقت دونه أبواب القلوب ... ولكنه كان بعد في شك من هذا الأمر . ولم يكن قد قر في نفسه بعد وأصبح عقيدة راسخة ... فكان في يومه هذا ناساً مستبشراً .

هاهى ذى السيارة قد وقت لدى المنزل رقم ١٧ وقد أوشك أن يقبل صفحة جديدة من صفحات حياته ... فلتتظر السيارة قليلاً ريثما ينزل ويستأذن أهل الدار في الدخول ... ثم يأخذ في دق الجرس ... عجباً ليس من مجيب ... إن السيدة قد ذهبت - دون شك - الى بعض شأنها وليس بالدار أحد ... فليتنظر قليلاً ... ولكن ... أى شيء هذا ؟ إن النافذة فتحت وهذه مسرهر في نفسها ... ولكنها تنظر اليه بوجه عابس متجهم ... إنها تبدى أسفها الشديد لأنها لا تستطيع أن تقبله في منزلها ... أجل ... ولا يهمها أن تكون قد سبقت كلمة منها اليه ... إنها لا تقدر أن تتوى لديها أحداً من أهل آسيا ، فليرجع بسلام ..

آسيا ؟ ولكنه ليس من أهل آسيا ... إنه من أهل مصر ! سيان لديها ، من أية الجهات مصدره ، مادام أهل الحى لا يروقه شكله ومنظره .. فليرجع الى أحد فنادق المدينة فانهم سيجربون به هناك . أما منزلها هذا فليس إليه سيل ...

ويطأ طي . حسن رأسه ويمشى الى سيارته مطرقاً واجماً . ويهمس في أذن السائق اسم أحد الفنادق ويرتمى في مقعده مجهداً متعباً . وتحين منه التفاتة الى يديه وبشرته السمراء ، فبدرك أن في العالم بعد جريمة هائلة دونها كل اثم وكل جرم ، وأنه - وبإلاسف - لا سيل الى الخلاص منها ، ولا الى الابتعاد عنها ...

أهل الكهف

تأليف

الأستاذ توفيق الحكيم

أتمت لجنة التأليف والترجمة والنشر إعادة طبع رواية أهل الكهف ، وجعلت نمنها عشرة قروش عدا أجرة البريد

والرواية غنية عن التعريف

تأليف من لجنة التأليف ومن المكاتب الشهيرة

ولتر من هو ستافسكى هذا الذى غدا بطلا لشبكة مالية من أعظم نكبات العصر .

ان هذه الشخصية المدهشة ، شخصية - ستافسكى - مازالت تبدو خلال التحقيق الذى تقوم به عدة جهات قضائية وإدارية لغزا مغلقا ؛ وكان مصرع ستافسكى أو انتحاره عاملا في ازدياد هذا الغموض ؛ من جهة نرى ستافسكى الفتى اللينى الجواد الذى يثر المال أينما حل بسخاء لم يسمع به ، ورب الأسرة الوفى الذى يعبد زوجته وولديه ، والمالى الذكى الساحر الذى لا يفتر نشاطه والذى يتقدم كل يوم لإنشاء مشاريع وشركات مالية جديدة ظاهرة القوة والنجاح . اذا بنا نرى من جهة أخرى ذلك الأفاق البارع الخطر الذى لا يفتأ يرتكب جرائم التزوير والنصب والاختلاس تباعا ، والذى يحيط نفسه بعصابة مريبة من كبار المزورين ، ويشتري ذم جميع الرجال المسؤولين الذين يوجدون في طريقه ويستخلص لنفسه ثمات الملايين من أموال الارامل واليتامى وصغار المودعين ، ثم ينفقها على ترفه وبذخه المجرم دون ضمير ولا وازع ، ونرى آثار مشاريعه الخيالية الجهنمية تتغلغل في صميم المالية العليا والحياة العامة ، ونرى اعين السلطات والمحققين تغضى عن تتبع جرائمه مع العلم بها ، تلك هى شخصية ستافسكى .

ولد سرج الكساندر ستافسكى سنة ١٨٨٦ في سيودكامن أعمال روسيا ؛ ونزح الى فرنسا بعد الحرب وتجنس بالجنسية الفرنسية ، وبدأ حياته المالية في باريس وسيطا في تجارة الجواهر والحلى . ثم نشط الى تأسيس الشركات المالية المختلفة ، فأسس شركة لصنع اللحوم المقددة ، وأخرى للسينا ، وثالثة لبيع بعض الاجهزة الطبية وهكذا ؛ ولكن هذه الشركات كانت مريبة ، ولم تكن سوى ستار لسلسلة من جرائم التزوير والنصب ارتكبها ستافسكى ، واستولى بواسطتها على ملايين عديدة . وكانت اعظم وسائله اذ ذاك تزوير قيم التعاويل المسحوبة لاذنه . واستطاع بهذه الوسيلة أن يحصل خلال سنتي ١٩٢٥ و ١٩٢٦ على ستة ملايين فرنك ، وهذا اكتشف امره وصدر الامر بان يرض عليه بناء على عدة شكاوى قدمت في حقه من البنوك ، فاخفى مدة ولم يستطع البوليس أن يقبض عليه الا بعد اشهر . وقضى ستافسكى في الحبس الاحتياطي حينئذ ثم استطاع ان يحصل على قرار بالافراج عنه ريثما تم المحاكمة . وقدم الى المحاكمة بتهمة النصب والتزوير والاختلاس . مع آخرين . ولكن هذه المحاكمة

وقضى على الوزير بالسجن . ووقعت في أوائل هذا القرن بفرنسا عدة فضائح مالية أخرى ، بيد أنها لم تكن يمثل هذه الخطورة . ووقعت منذ أعوام قلائل فضيحة الجازيت ده فرانك ، التى انتهت فيها مدام هانو الكاتبة الصحفية باختلاس ثمات الملايين ، وانتهى فيها عدد من أكبر الصحفيين والكتاب بالمعاونة في التستر على مشاريعها المريبة والترويج لها في صحف كبيرة محترمة . ثم وقعت منذ ثلاثة أعوام فضيحة شركات أوسترك فكانت من أعظم الكوارث المالية التى عرفت ، حيث أفلس من جرائها عدة بنوك كبيرة واختلس نحو مليار فرنك (يومئذ نحو عشرة ملايين جنيه) ، وألقيت بسببها ريب خطيرة على وزيرى المالية والحقانية وإدارة بنك فرنسا ، وانتهت بسقوط وزارة مسيو تاردييه (أواخر سنة ١٩٣٠) ، وقد كان أوسترك بطل هذه الكارثة خادما في مطعم ثم انتهى الى صف أعظم رجال المال وأسس بنوكا وشركات عديدة قامت على التزوير والنصب والدعوى ، ونكب انهارها ثمات الالوف من أصحاب الودائع ، وكان كل جزائه بعد تحقيقات طويلة معقدة أن قضى عليه بالحبس عاما واحدا !

ولست فضيحة ستافسكى التى تشغل فرنسا اليوم الا مثلا جديدا مروعا يؤيد هذه الحقيقة . فهى كسابقاتها تقوم على اختلاس ثمات الملايين ، ونكبة ثمات الالوف ، وهى كسابقاتها تلحق كثيرا من الريب الخطيرة على الرجال المسؤولين ، وقد سقطت بسببها وزارة قوية تستند الى أغلبية كبيرة في البرلمان . بيد أنه يمكن أن يقال ان هذه الفضيحة الجديدة تفوق سابقاتها في التغللل الى صميم النظم والحياة العامة ، وفى التدليل على فسادها ، وفى آثارها السياسية والاجتماعية . وقد شهدنا نتائجها الاولى في سقوط وزارة مسيو شوتان وقيام وزارة مسيو دلاديه ، ولكن من الصعب أن تنبأ الآن بما يمكن أن يترتب من هذا الانقلاب الاول ، خصوصا وان الفضيحة مازالت تتمخض كل يوم عن حوادث واسرار جديدة ، وما زال رأى العام يضطرم سخطا ودهشة ، ويتطلب اجراء العدالة بمنتهى القسوة واصلاح هذا الفساد الدفين بسرعة حرصا على سلامة النظم الجمهورية ، وتوطيدا للثقة العامة التى زلزلت أركانها .

ولتر الآن ماهي هذه المروعة التى تقيم شعبا بأمره

تم قط منذ سنة ١٩٢٢ ، ولا زالت حتى اليوم معلقة للنظر أمام محكمة الجناح . وكانت مدى اعوام ثمانية توجل في كل مرة الى آجال طويلة لانقضاء الاسباب ؛ وظهر فيما بعد أن ذلك يرجع الى نفوذ ومؤثرات معينة ، وأن الاتفاق استطاع أن يؤثر عن طريق أصدقائه الأقوياء على سير القضاء . كما استطاع أن يؤثر في عمل البوليس ، ولما ظهرت هذه الحقيقة المدهشة أخيراً كانت منار السخط والرب في نزاهة القضاء .

وكان ستافسكى طريد القضاء أثناء ذلك يعيش في بذخ لم يسمع به في داره الفخمة بحي الشانزليز مع زوجته الحسنا مارليت سيمون التي تزوجها منذ سنة ١٩٢٢ ، ولولديه الصغيرين ، وكان يظهر في المسارح والأوساط الرفيعة وفي ملاهى الليل وميادين السباق وأندية المقامرة بأعظم مظاهر النخى والترف ، وينفق الملايين الطائلة في كان ومونت كارلو وبيارتز وغيرها من مدن المياه ، كل ذلك باسم « مسيو ألكس » وقد ظهر من التحقيق فيما بعد أن كثيرين ممن اتصلوا به لم يكن يدور بخلد أن مسيو ألكس هذا أو ألكس الجليل هو نفسه الكساندر ستافسكى بطل الفضيحة الكبرى .

وفي سنة ١٩٣٠ وقع ستافسكى في مأزق جديد وانفصح أمره مرة أخرى ، ذلك أنه قدم إلى بنك التسليف البلدى باورليان طائفة كبيرة من الجواهر الزائفة واستطاع برهنها أن يحصل على سندات للخزينة قيمتها عشرة ملايين فرنك ، وأن يقطع هذه السندات ويحصل على قيمتها ولكن هذا التزييف الهائل اكتشف غير بعيد ، وظهر أن الجواهر المودعة كلها زائفة لا تساوى أكثر من عشرة آلاف فرنك ، يد أن ستافسكى فطن في الحال للخطر الذى يهدده ، وبادر بتسوية المسألة ورد قيمة السندات المسحوبة ، وبذا أسبل السار على الفضيحة بسرعة ، وأخذ ستافسكى مشاريعه من خطر الانهيار وأخذ نفسه من ظلام السجن

ولم يمتص على ذلك أشهر قلائل حتى استطاع ستافسكى أن ينفذ مشروعه الجديد ، وهو إنشاء بنك التسليف البلدى في مدينة بايون . وهذه البنوك المحلية الصغيرة تنشأ في عواصم الاقاليم طبقاً لقانون خاص ، وتقوم بمهمة التسليف برهونات متقولة مثل الجواهر والحلى ؛ وهى تنشأ عادة برؤوس أموال صغيرة ، ولكنها تستطيع متى اتسعت أعمالها أن تزيد في رأسمالها باصدار سندات على الخزينة بالاعتمادات اللازمة ، وهذه السندات تنسج بنوع من الضمان الحكيم ، لأنها تصدر بمصادرة السلطات المحلية ففرد عن إدارة

البنك ، وتمثل السلطات المحلية في إدارة البنك على يد مدير المقاطعة وعمدة المدينة ، وتمنح هذه السندات عادة برجاء حسن لا يقل عن خمسة في المائة ، وتعفى من ضريبة الدخل ، وهى لذلك تجد اقبالاً من شركات التأمين وغيرها من شركات الادخار تتسارع الى اقتنائها كوسيلة حسنة لتوظيف المال . وقد رأى ستافسكى في الحال أنه يستطيع أن يجعل من اصدار هذه السندات وسيلة سهلة مدهشة لاختلاس عشرات بل مئات الملايين . يد أنه حرص بآدى . يد أن يتمتع مصرفه الجديد بسمعة حسنة ؛ واستطاع أن يجعل منه مؤسسة ناجحة متسعة العمل . ثم عمد بعد ذلك الى اصدار السندات تنطية لاعتمادات يريد البنك تحقيقها ، ويسدد قيمتها متى حلت آجالها ، فأخذ يصدر منها الملايين ثم عشرات الملايين ثم مئاتها ؛ وكان اختلاس هذه الأموال الطائلة يجرى بالصورة الآتية : يصدر البنك سندات قيمتها عشرة ملايين مثلاً ، ثم يعرضها في السوق المالية للقطع ، فتشتريها احدى شركات التأمين بقطع مرغى جداً (هـ في المسألة مثلاً) لكي تقبض قيمتها متى حل أجل استهلاكها وتستفيد بذلك من القطع ثم من الأرباح . وقد بذل ستافسكى لترويج هذه السندات جهوداً مدهشة ، واستعان في ذلك بالجهات الرسمية وبالندوة الصحفية ، ومن الغريب أنه استطاع بواسطة النائب جارا عمدة بايون ، أن يستصدر من وزير المالية ووزير التجارة منشورا وجه الى شركات الاستثمار المختلفة يحث على اقتناء سندات بنك التسليف المحلية باعتبارها اوراقاً ثابتة مضبوطة ووسيلة حسنة للاستثمار ، وذلك طبقاً لما نصت عليه بعض القوانين المالية ؛ فكان هذا التعضيد الرسمى اداة قوية في يد ستافسكى ومشجعا للشركات على شراء سندات مصرفه ، وكانت هذه الملايين الطائلة بدلاً من أن تودع خزانة البنك تذهب تها الى جيب ستافسكى يبددها على بذخ المدهش وينفق منها على شركائه واعوانه . ولم تكن هذه الملايين ترصد في سجلات البنك لان السندات كانت زائفة تصدر دون مرجع او سجل ، وقد استطاع ستافسكى كما أثبت التحقيق أن يبيع من هذه السندات المزورة الى غنى الشركات والافراد بما يساوى نحو خمسمائة مليون فرنك (أو نحو ستة ملايين جنيه) في أقل من ثلاثة اعوام ؛ هذا الى طريقة أخرى للاختلاس لجأ اليها ستافسكى ، وهو انه في فرص كثيرة كان يقدم الى البنك بعض الجواهر المزيفة باعتبار انها جواهر ثمينة ويسحب عليها

الأدب والخلود

بدت في أفق الوجود منذ أقدم عصوره أنواع كثيرة من الحيوان والنبات ، ظلت تتصارع مع إرادة البيئة وعوامل الموت والحياة حقبا طويلا ؛ حتى فرق بينها قانون « تنازع البقاء » ، بركات الحاسنة ، فسكنت رضى الحرب وأسفرت تلك الوقائع عن خطوط متباينة لكل نوع منها عن الآخر ؛ ففنا ما كان ضعيف الأيد فقير العدد لم يستطع أن ينجو من نار هذا التنافس المنصر فالتهمته ألسنتها وأسدت على كيانه مذكراته حجاب العدم إلى الأبد ، ومنها ما جاوزته هذه التيران وقد أبتت منه هيكلا هشيما أو بقايا متشورة لم تزل مطمورة تحت أطباق الأرض حتى عثر عليها رجال الآثار والحفريات فقتروها في صدور المعارض والمتاحف ، ووهبوا بعناجيد الحياة الذكرى . وكان هنالك غير هذين ما وهبه الطبيعة أمضى الأسلحة للوقاية أو السطوة ؛ فكان هو الصائد للبهول الصائل في المجال حتى خرج مظفرا منصورا رافعا لواء الحياة !

كذلك في أفق الفنون والآداب نرى مثل هذا الصراع العنيف دائر الرضى بين أنواعها المختلفة ، وبين مؤثرات العدم والوجود ، كأنها كائنات حية شاخصات الجثمان تحكم بينها قوانين النشوء والبقاء . ولئن كانت حرب الأنواع المادية قد خمدت ناراها منذ آماد لتؤول إلى نضال آخرين فصائل النوع الذى ظفر بالبقاء ، فإن صراع مستجات العقل وبخاصة ما كان في دائرة الفن والآداب لما يزل حامى الرطيس مشتعل اللهب منذ أخذ الفكر وأخذت العاطفة تفتح عيونها على الكون ، وتعرف ما فيه من ظواهر وأسرار إلى اليوم . وسيظل هكذا يزداد أواره احتداما كلما نما العقل واتسفت شعاب الحياة أمام العواطف ، وكلما ارتقت مثل الإنسانية وآمال المجتمعات والأفراد في سماء الحضارة الرحيبة الآفاق ؛ فكل أدب واحد القوى أو فاقد الأداة لابد أن يكون مصيره كصير ذلك الكائن الضعيف إما فنا ، أبديا أو فنا ، يتخلله البعث للذكرى في خزائن الكتب ، أو شوارب التاريخ أو على جدران المعابد ، وكل أدب موفور القوة موهوب المنة لابد أن يغالب الزمان ويبقى على الحدائق .

هكذا توزعت الجلود على أنواع الأدب على كل عصوره الماضية

مبالغ طائلة ، وفي أحيان كثيرة كان يستخرج الجواهر النيرة التي أودعها عملاء البنك في خزائنه وهنا للقروض ثم يضع مكانها جواهر زائفة ، ويحصل بهذه الوسيلة على عشرات الملايين .

والآن ، لنر كيف اكتذفت هذه الاختلاسات الهائلة . ومن المحقق أنه كان من المستحيل أن يمضى ستافسكى في جرائمه طول هذه المدة ، وعلى هذا النحو المدهش لو لم يكن مستظلا بحماية الرجال المسؤولين آمنة مطاردة البوليس والقضاء . على أن حادثنا فجائيا أدى إلى اكتشاف الحقيقة المروعة ، وهو أن إحدى شركات التأمين ، كانت قد اشترت من السندات الزائفة ما قيمته ثمانية ملايين حل أجل استهلاكها في اغسطس الماضى ، فتقدمت إلى البنك بطلب هذا المبلغ فطلب مدير البنك تسييه رجل ستافسكى وشريكه مهلة للدفع ، فرأت الشركة من باب الاحتياط أن توقع حجزاً على بعض المبالغ المطلوبة للبنك ، فدهش مراقب الضرائب في بايون لهذا الحادث وأرتاب في الأمر لأنه لا يعقل أن مصرفا كبيرا يحترما مثل بنك بايون يتوقف عن الدفع بهذه الصورة ، وتصادف عنده أنه يخص بعض السندات المسحوبة فلم يثر لها على أثر في سجلات البنك أو حساباته ، فأخطر الجهات المختصة ، وكان ذلك في يوم ٢٣ ديسمبر الماضى . ولما رأى مدير البنك تسييه أن الأمر قد اقتضح ذهب إلى مدير البوليس ، واعترف له بطرف من هذه الجرائم ، وفي الحال تدخلت النيابة ، وقبض على تسييه وبدأ التحقيق في القضية الكبرى وسرى في فصل نال ماذا كشف التحقيق عنه ، وماذا كانت خاتمة هذا الاتفاق البارح وماذا كانت آثار هذه الجرائم المثيرة في سير الحياة الفرنسية العامة .

محمد عبدالله عنان

